الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

منزلة الولاية الصوفية عند الشيخ محي الدين بن عربي

The Status of the Holiness Mystical when Sheikh Muhyiddin Ibn Arabi

د. شارف عبد القادر
شعبة الفلسفة، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.
جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف
ch_abdlk02@yahoo.fr

ملخص

يعالج هذا المقال إشكالية الولاية الصوفية من حيث مرتبتها في السلوك الصوفي، وما تنتجه من مقام رفيع للولي داخل النسق الاجتماعي يُمكّنه من تولية شؤون المجتمع الذي يدين له في كل مجالاته ابتداء من الديني إلى الشأن السياسي. وتاريخ الولاية الصوفية شاهد على ذلك.

تتجلى هذه المرتبة في أن الله اختص الولي في الاطلاع على ما يقضي به ويريد، فهي مرتبة أشبه بمرتبة الأنبياء. وهذه القرابة بين الولاية والنبوة هي ما دعت الفكر الصوفي إلى طرح قضية الولاية الصوفية كإشكالية في علاقتها بالنبوة. وكان الحكيم الترمذي المبادر إلى طرح هذا القضية من خلال مؤلفاته، وأهمها مؤلفه "ختم الولاية". ونظرا لظروف زمنه، لم يتجاوز في معالجته لهذه القضية عتبة الإشارة والتلميح للعلاقة بين الولي والنبي، ليصوغها في أسئلة غامضة وعويصة انتظرت مجيء محي الدين بن عربي الصوفي الشهير ليتجرأ على تقديم إجابات لأسئلة الترمذي، شكّلت بالإضافة إلى رؤاه وتصوراته حول الولاية الصوفية نظرية متكاملة حولها، بل جعل منها قطب الرحى الذي تدور حوله قضايا التصوف جميعها، مما جعل بعض دارسيه يرى بأن الفكر الصوفي عند ابن عربي هو تفكير في الولاية لا غير.

الكلمات الدالة: الولاية الصوفية، القطب، الأبدال ، السلطان السياسي.

Abstract

This article treats the issue of (holiness mystical) regarding its stand in the soufi behavior and what is producing of high level for the saint in the social mode. That makes him capable of handling the society which owns him in all fields starting with the religious to the politic. And the history of the soufi sanctity witnesses that.

This problematic was brought up in the soufi thought in the order of the relation between the prophecy and the holiness. And the wise (Hakim termidi) was the first to handle that. Then came (Ibn Arabi) to create for this relation a more specific and clear picture.

Keywords: *Holiness mystical, the Pole, the Substitutes, Political power*

مقدمة

تمثل الولاية في الفكر الصوفي الإسلامي مدار التصوف كله وغايته، إلى درجة أن أصبحا "أمران لا يفترقان، وبغير أولياء لا يوجد تصوف؛ إذ الولاية هي أصل التصوف ومنبعه، وزاده الذي يحيا به، ومنها يستمد دوره في بقاء الولاية واستمرارها"[1] . إنها للمتصوف الغاية التي يسعى إليها من خلال سلوكه في طريق المقامات، فهي ثمرة السلوك ونهايته، بحيث إذا ما تمكّن من بلوغها احتل مرتبة العارف بالحقائق الإلهية التي

يستمدها من الله مباشرة. وما يؤكد هذه الحقيقة، هو أن كبار المتصوفة عبر تاريخ التصوف في الإسلام، قد أولوا مسألة الولاية اهتماما أكبر، معلين من منزلتها باعتبارها الغاية التي يصبو إليها كل متصوف، مضفين على ما تثمره لديهم هالة من الرفعة والقدسية لا سبيل إلى الطعن فيها، ومنها يكتسب الصوفي الولي رفعته وقدسيته.

الشيخ محي الدين بن عربي*، من أولئك المتصوفة العظام الذين سعوا إلى الولاية، وقد بلغها بالفعل، واعتبر نفسه خاتما لها، كما كان محمد (ص) خاتما للنبوة. كما أن القارئ لأهم كتب الشيخ، وهي "الفتوحات المكية" و"فصوص الحكم" يشعر برفعة المقام، وأنه ينطق مباشرة عن الله، وفق سبل الوحي التي اختص الله بها أولياؤه.

مع الشيخ الأكبر، لا نقف عند مجرد هالة درجة الولاية التي يستشعرها المؤمنون بها ويقدسونها، بل نخوض معه - ومن خلال كتاباته - تجربته التنظيرية المؤسِّسة لمشروعية علم التصوف لمختلف قضاياه، ومن أهمها بالطبع فكرة الولاية، ضمن الخطاب الإسلامي. وهي تجربة منافحة لهذا العلم في وقت - بل كل الوقت - نُظر إلى التصوف بعين الريبة، واتهم بأنه دخيل على الثقافة الإسلامية الأصيلة.

بعد هذه التوطئة للعلاقة بين التصوف والولاية، والتي أبرزت مدى مكانة الولاية بالنسبة للتصوف، يحق لنا أن نتساءل عن طبيعة الولاية الصوفية، وما الذي تتميز به حتى تجعل المتصوفة يسعون إليها بكل ما أوتوا من قوة، وكونها قطب الرحى للتصوف كله؟

للإجابة عن هذا التساؤل المعرفي، يجدر بنا أولا تتبع تاريخية المفهوم في التصوف الإسلامي _ وان بصورة مقتضبة _ حتى نتمكن من فهم الخلفية التي استند إليها بن عربي في تنظيره لمفهوم الولاية الصوفية.

1. تاريخية المفهوم

إن تتبع ولادته المفهوم ومساره، واختلاف دلالته لدى المنظرين له من المتصوفة، يرجع أصلا إلى الأساس اللغوي القائم بدوره على النص الديني قرآنا وحديثا نبويا، باعتباره أصلا لهذا المفهوم ذي الطبيعة الدينية.

1.1 الدلالة اللغوية للولاية:

لقد اجتهد ميشيل شودكيفيتش في كتابه "الولاية" في جمع مختلف الدلالات اللغوية للمفهوم، مبتدءا بأن "كلمة "ولي" جمعها "أولياء" وأصل الكلمة هو "و ل ى". وحين نتدبر معاني مادة "و ل ى" نجد أن معنى القرب والدّنو هو أول ما يتبادر إلى الذهن من معاني هذه المادة، ثم تتولد عنه بعد ذلك دلالتان أخريان: دلالة على الصديق ودلالة على الحاكم والمدبر والقائم بالأمر. وإذن؛ فالولي بالمعنى الدقيق هو: القريب. وهو أيضا، وكما يلاحظ ابن منظور في لسان العرب: النصير والمدبر". وينتهي شودكيفيتش، بعد عرضه لمختلف الصياغات اللغوية لمادة (و ل ى) إلى القول: " أنه من وجهة نظر لغوية بحته: أن وزن فِعالة الذي تصاغ عليه كلمة "ولاية" لاشك أنه يستعمل في الدلالة على ممارسة الفعل أو الوظيفة، مثل خلافة التي تعني وظيفة الخلافة، وإمارة التي تعني وظيفة الأمير. ونفس الشيء أيضا بالنسبة للولاية التي تعني في الاصطلاح السياسي والإداري وظيفة الولي _ بمعنى الحاكم _ ومجال اختصاصه بوجه عام. أما وزن فَعالة الذي تصاغ عليه كلمة وَلاية فإنه يستعمل للدلالة على "الحالة". ويبدو أن هذا الوزن هو الأكثر ملاءمة لصياغة مصطلح يدل على الوليّ بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة." [2]

وفي المراجع الصوفية، نجد الهجويري يحدد لفظة "الولاية" لغويا كالتالي: "أما الوَلاية بفتح الواو فهي في حقيقة اللغة بمعنى النصرة. والوِلاية بكسر الواو فهي الإمارة، وكلتاهما مصدر "ولي"...الولاية أيضا: الربوبية ومن ذلك أن الله تعالى قال: ﴿ هنالك الولاية لله الحق ﴾ [الكهف: 44] لأن الكفار يتولونه ويرجعون إليه ويتبرأون من معبوداتهم. والولاية أيضا بمعنى المحبة" [3].

هذه الدلالات اللغوية، إنما ترجع _ كما سبق وان أسلفنا_ إلى الأساس الديني ممثلا في منطوق النص القرآني والنبوي. ففي القرآن الكريم، "أخذت الولاية معنى: النصرة والتولية. وقد أطلقها تعالى على ذاته اسما بالإطلاق، أو بالإضافة إلى بعض عباده. كما أطلقها تعالى على عبيده، أو بالإضافة بعضهم إلى بعض. وقد أحصت د. سعاد الحكيم، في معجمها، مختلف الدلالات التي أخذها مصطلح "الولاية" في القرآن الكريم، على النحو التالي :

1. الولي هو الله

أ. بالإطلاق: ﴿وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا﴾ (النساء:45)
ب. بالإضافة إلى بعض عباده : (المؤمنين، الصالحين، المتقين...)
﴿ واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾[الحج: 78] ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ [البقرة:257] ﴿ وهو يتولى الصالحين ﴾ [الأعراف :196] ﴿ والله ولي المتقين ﴾ [الجاثية : 19]

2. الولي هو الإنسان.

أ.ولي الله: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:63]
ب.المؤمنين بعضهم أولياء بعض: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[التوبة:71]
ت.الكافرين بعضهم أولياء بعض: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال:73] ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية : 19]
ج. ولي الشيطان: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾[مريم :45] ﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ [النساء:119] " [4].

ومما جاء في السنة النبوية، انه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: "من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب" [5] وقوله أيضا : "إن اغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحال ذو حظ من الصلاة أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر،

اعتبر دوما من صلب التصوف، وإن كفّ كثيرون من التطرق إليه، نظرا لما كان يحيط بهم من صور القمع والحجر، وفعلا فقد سكت المتصوفة بعد الترمذي في التطرق إلى هذا الموضوع، وخاصة في أسئلته التي طرحها في هذا الكتاب، والتي تعتبر الإجابة عنها هي بمثابة تأسيس لنظرية في الولاية، تلك الأسئلة المائة والسبعة والخمسون ظلت تنتظر دون جواب زمن ابن عربي الذي واجه التحدي وأجاب في الفتوحات عن الأسئلة جميعها.•

II- نظرية الولاية عند ابن عربي:

إن كان الحكيم الترمذي قد كان له شرف السبق في طرح قضية الولاية الصوفية، وجعلها مدارا للتصوف، بحيث لا معنى لهذا الأخير بدونها، فإن ابن عربي سيكون له الفضل في بلورة نظرية الولاية، والبلوغ بها أشواطا بعيدة من حيث التنظير، والخوض في مقتضياتها، التي اعتبرت في نظر البعض خطوطا حمراء، التي لا يجب تجاوزها. والتي سبق للحكيم الترمذي أن ألمح إليها، وترك بشأنها تلك الأسئلة التي لم يتجرأ أحد من الصوفية بعده على الإجابة عنها وانتظرت مجيء ابن عربي. لذلك فلا غرو أن نسوق شهادة ميشيل شودكيفتش المنوهة بدور الشيخ في التنظير للولاية، حيث يقول: "إذا رجعنا إلى الولاية في الإسلام فإننا نجد ملامح هذا المفهوم وقسماته إنما تتحدد على يد ابن عربي، ومن خلال أنظاره وتصوراته". ويضيف على ذلك مبرزا لأهمية هذه النظرية عنده بأنها بمثابة "حجر الزاوية في كل كتابات ابن عربي" [15].

لقد شكلت نظرية الحكيم الترمذي لابن عربي مرجعية عرفانية صوفية، إضافة إلى اعتماده على فهمه للنصوص الدينية المؤسسة للمفهوم وفق منهج بياني وفق ما يسمح به منطق بيان اللغة العربية. وستتضح لنا هذه المرجعية من خلال عرضنا لمفهومه للولاية، وكذا نظريته حولها.

1 ـ II مفهوم الولاية

يربط ابن عربي مفهوم الولاية بـ "النصرة". حيث يقول: "فإن الولاية نصر الولي أي نصر الناصر" [16] . وهو نعت إلهي لذلك كان عاما يشمل كل المخلوقات، لكنه نعت "لا ينسبه الله لنفسه إلا بتعلق خاص للمؤمنين خاصة والصالحين من عباده وهو ذو النصر العام في كل منصور. ولما كان نعتا إلهيا هذا النصر المعبر عنه بالولاية وتَسمى سبحانه به وهو اسم الولي وأكثر ما يأتي مقيدا كقوله:﴿ الله ولي الذين آمنوا ﴾[البقرة: 257] سرى في كل ما ينسب إليه إلهية مما ليس بإله" [17]

وهذا التحديد لمفهوم الولاية أثمر تصورا جديدا لمسالة كلامية لها علاقة بمفهوم المؤمن والكافر من باب النصرة، فقد كان الاعتقاد، ولا يزال مستمرا، بأن متعلق النصرة مرتبط بالمؤمن الموحّد المضاد للمشرك وغيره من ملة الكفر، إلا أن ابن عربي يغير هذا التصور من خلال تمييزه بين الولاية بلسان العموم، والولاية بلسان الخصوص.

فالولاية بلسان الخصوص تتعلق "بأي شخص صدق في احترام الألوهية واستحضرها وإن اخطأ في نسبتها ولكن هي مشهودة كان النصر الإلهي معه غيرة إلهية على المقام الإلهي فإنه العزيز الذي لا يغلب، فما جعل نصره واجبا عليه للموحد وإنما جعله للمؤمن بما ينبغي للألوهية من الحرمة ووفى بها من وفى، وهذا من أسرار الولاية التي لا يشعر بها كل عالم" [18]. من هنا يظهر أن المؤمن الذي يتولى الله نصرته هو كل مؤمن آمن بقضيته ووفى لها، وهذه القضية سواء تعلقت بأمر عقائدي ديني، آو فكرة، أو أي قضية كان نوعها. فالشرط في النصرة هو الإيمان بالقضية [19].

أما الولاية بلسان العموم، استنادا إلى قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: 47]، فيقول: "إن الموحّد إذا أخلص في إيمانه وثبت نُصِر على قرنه بلا شك فإذا طرأ عليه خلل ولم يكن مصمت الإيمان وتزلزل خذله الحق وما وجد في نفسه قوة يقف بها لعدوه وعلى المؤمن فما نصر الله العدو، وإنما خذل المؤمن لذلك الخلل الذي داخله فلما خذله لم يجد مؤيدا فانهزم فبالضرورة يتبعه عدوه فما هو نصر للعدو وإنما هو خذلان للمؤمن لما ذكرناه" [20].

تصبح مسالة الإيمان بالقضية هي المحور في النصرة، وإذا كان الله قد قطع وعده بنصرة المؤمن، الذي هنا هو الموحِّد _ إذا ما نظرنا إلى الولاية بلسان الخصوص _ فإن نصره مشروط بإيمانه بما يدافع عنه، أما إن تخاذل في ذلك أو داخله شك في إيمانه فإنه بالضرورة ينهزم. وعليه فالنصرة مشروطة بالإيمان.

2 ـ II علاقة الولاية بالنبوة والرسالة

نبرز تحت هذا العنصر الجانب الأهم في نظرية الولاية عند ابن عربي، وما يترتب عنها من نتائج تتعلق بالولي الصوفي ودوره على المستوى الديني والاجتماعي.

يبدأ ابن عربي بقوله: "اعلم أن الولاية هي المحيطة العامة وهي الدائرة الكبرى، فمن حكمها أن يتولى الله من شاء من عباده بنبوة وهي من أحكام الولاية وقد يتولاه بالرسالة وهي من أحكام الولاية أيضا، فكل رسول لابد أن يكون نبيا، وكل نبي لا بد أن يكون وليا، فكل رسول لا بد أن يكون وليا." [21]

ويمكننا صياغة هذا القول وفق صورة القياس الصوري الأرسطي، بحيث تصبح كالتالي:

كل رسول نبي،

وكل نبي ولي،

إذن: فكل رسول ولي.

فالنتيجة المراد إثباتها، هي أن الرسالة من خصوص الولاية، بناء على النبوة التي تتوسط كل من الولاية والرسالة. فتكون الولاية هي الحد الأكبر لوروده محمولا في النتيجة، وبذلك تدخل الحدود الأخرى كلها ضمنه، فاستحقت الولاية بذلك الدائرة المحيطة والمستغرقة لغيرها من نبوة ورسالة.

فهل يعني ذلك أن الولاية أرفع درجة من النبوة، وبالتالي الولي أرفع من النبي؟

إن ذلك ما خشيه الفقهاء من علوم الظاهر، وهو ما جعلهم يرون في هذه المقابلة تطاول على مقام النبوة، وجعلها من المكتسبات

وكان غامضا في الناس لا يشار إليه" [6] والحديث الذي يحتفي به المتصوفة كثيرا، قوله صلى الله عليه وسلم: "من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب" [7].

وهكذا نجد أن موضوع الولاية في أساسه وتكونه ينبع من القرآن ويرجع إليه، غير أن فهم الكتاب إنما يزداد ثراء مع تدبر الأحاديث النبوية التي تكرر فيها ورود مادة (و ل ى) بصورة واضحة" [8].

يمكننا أن نستخلص مما سبق بيانه في الدلالة اللغوية للولاية، أن المفهوم ذا أساس ديني يشير إلى مدى قرب العبد المتفاني في العبادة من ربه، وحينذاك تسبغ عليه نعمة القرب من الله، وأهمها المعرفة بالله وصفاته، ويستحق الولي بذلك مرتبة العارف بالله.

انطلاقا من هذه الرتبة، فقد ادعى أئمة الشيعة الولاية، فالإمام في أدبيات الشيعة هو المتلقي المباشر عن الله، وكأن وظيفة النبوة قد امتدت إلى الإمام باعتباره خليفة له. ولذلك فقد كان ميلاد المفهوم في الوسط الشيعي قبل أن ينتقل إلى الوسط السني عند الصوفية لأسباب سياسية ارتبطت بأوضاع الشيعة انذاك.❖

وبالعودة إلى ميلاد المفهوم في الوسط الصوفي، فإن د. سعاد الحكيم ترى بأن فكرة الولاية قد "بدأت مع متصوفة القرنين الثاني والثالث الهجريين تتلمس طريقها إلى الظهور مع الفضيل بن عياض(ت187ه)، معروف الكرخي(200ه)، الجنيد(ت297ه)، المحاسبي(ت243ه)، ذي النون المصري(245ه)، البسطامي(ت261ه). ولم تتأكد إلا في جرأة حكيم ترمذ الذي جعلها محور فلسفته الصوفية، وقطب معظم إنتاجه؛ وكان ذلك ظاهرا حتى في أسماء كتبه أمثال "علم الأولياء" و "ختم الأولياء" و " سيرة الأولياء". وهذا الاهتمام من الترمذي بالولاية أدى به في النهاية إلى أن تصوفه بكامله ليس سوى نظرية متكاملة في الولاية" [9].

يعتبر الترمذي• أول من عالج فكرة الولاية معالجة وافية، باعتبارها أحد مقومات التصوف وأساسه، "وكان كتابه "ختم الأولياء"، بمثابة ثورة وطفرة في تاريخ التصوف، تتميز بالطموح وتطال مفاعيلها الجوانب الفكرية والسياسية كافة، لو قدر لها أن تبلغ نهايتها المأمولة" [10].

يفرق الترمذي في كتابه "ختم الأولياء" بين "أولياء حق الله" و "أولياء الله"، ويرى أن كلاهما يحسبان أنهما أولياء الله [11] . ويشرح صاحب كتاب الولاية هذه التفرقة بقوله: "إن الحياة الروحية تتجلى في مظهرين، أو بتعبير اصح، في درجتين: الدرجة الأولى المتأسسة على قاعدة "التزام الصدق"؛ بمعنى أداء التكاليف بأسرها على الوجه الأكمل، سواء في ذلك التكاليف الظاهرية والباطنية، وهي تكاليف تقتضيها طبيعة العلاقة بين العبد وسيده، أما الدرجة الأخرى فإنها تأتي ثمرة "المنة". ويناسب الشخص في الدرجة الأولى وصف: "العبادة"، أما في الدرجة الثانية فيناسبه وصف "العبودية"، وهي تعني عند الترمذي ... الشعور بافتقار جميع الكائنات إلى الله تعالى افتقارا مطلقا." ويضيف : "أن وليّ "حق الله" إذا كان مدار ولايته على رعاية التكاليف الشرعية فهو إذ يفعل فإنما يفعل نظير مقابل يرجو حصوله، أما "وليّ الله" فهو ـ خلافا لما سبق ـ لا يرعى إلا الله ولا يتعلق إلا به، ومن ثم فليس هناك شيء آخر يقايض عليه أو يبذل من اجله، وتحقق "ولي الله" بالعبودية المطلقة يؤهل قلبه لتجليات الكمال المطلق، ومن هنا كانت إحدى علامات الولاية الحقة، ... وهي فيما يقول الترمذي : نزول السكينة على قلوب الأولياء، والسكينة هي"السلام"[12] .

كان من نتائج هذا التصور للولاية أن أثار ذلك السؤال الكبير والعويص حول علاقة الولاية بالنبوة. فالكمال المطلق هو للأنبياء والرسل لعصمتهم عن الأخطاء كبيرها وصغيرها، فهل بإمكان المتحقق بالعبودية على شرط الترمذي أن يبلغ ذلك؟.

لقد تفطن الفقهاء لذلك، وأدركوا لما يمكن أن تؤول إليه هذه النظرية، فقد ذكر ابو عبد الرحمن السلمي: أنهم أخرجوا الحكيم من ترمذ، وشهدوا عليه بالكفر، وذلك بسبب تصنيفه كتاب "ختم الولاية"، وكتاب "علل الشريعة"، وقالوا: أنه يقول: أن للأولياء خاتما كالأنبياء لهم خاتم، وأنه يفضل الولاية على النبوة، واحتج بحديث: "يغبطهم النبيون والشهداء". فقدم بلخ، فقبلوه لموافقته لهم في المذهب." [13]

لقد كان لهذه التهمة، وما تبعها من إجراءات بحق الحكيم الترمذي أثرا سيئا لدى المتصوفة من بعده، وحتى عند الذين أخذوا على عاتقهم التأريخ للتصوف من أمثال القشيري، وغيره. "فإذا ما ذهبنا نستطلع المؤلفات الصوفية نفسها ألفيناها تشمل باليقين على إشارات شديدة الوضوح في بعض الأحيان تتعلق بموضوع الولاية، لكن يشيع في هذه المؤلفات ميل ظاهر إلى التكتم والحذر كلما أخذ الحديث مجراه صوب مفهوم الولاية، وتحديد مقوماتها وخصائصها، بل هناك نصوص كثيرة لا تلوي على مصطلح "ولاية" وتستعمل بدلا منه مصطلح: عارف أو صوفي، أو أي مصطلح آخر مشابه" [14].

يعود السبب في ذلك، كما أسلفت سابقا، إلى ما أثارته هذه النظرية من علاقة بين النبوة والولاية، وما يمكن أن ينجر عن ذلك من إعلاء للولاية على النبوة، وقد حدث بالفعل عند أتباع وتلامذة الترمذي نفسه. ولكنه من جهة أخرى يستحضر جو الصراع بين الشيعة وأهل السنة، فقد كانت فكرة الولاية الشيعية من بين أهم أسباب الصراع بين الفريقين لارتباطها بالإمامة، وما يترتب عن ذلك من استئثار للمعرفة الدينية، سواء على المستوى التشريعي أو العقائدي. ومنه فإن حقيقة التخوف من قبل الفقهاء أن يتحول الولي إلى منزلة الإمام الشيعي في الوسط السني، وفي ذلك تهديد أيما تهديد للسلطة الدينية كما هي في عرف أهل السنة، وكذلك السلطة السياسية القائمة على أساس الاختلاف الإيديولوجي مع الشيعة. وعليه فكان لزاما أن تحارب هذه الأفكار وينكل بمن ينادي بها.

غير أن وسائل التهديد ما كانت لتمنع حرية الفكر، وان استطاعت أن تشل من حركته لفترة وجيزة. فكتاب الترمذي "ختم الأولياء" اعتبر خطوة جبارة وقفزة نوعية في طرح ما

التي بإمكان الإنسان بلوغها. وفي ذلك هدم لأساسيات معلومة في الدين، مما يعتبر خروجا عنه. فكيف عالج ابن عربي هذه الإشكالية؟.

يرتكز ابن عربي في معالجته لهذه الإشكالية على المنطق البياني، أي ما تقتضيه أساليب اللغة العربية، وكذا على ما يمُدّه به الكشف في فهم النصوص الدينية.

فبخصوص النبوة، يقول: "النبوة التي هي غير مهموزة فهي الرفعة ولم يطلق الله منها اسم ولها في الإله اسم رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده. ولها أيضا الاسم العلي والأعلى وهي النبوة المهموزة وهي مولدة عن النبوة التي هي الرفعة، فالقصر الأصل والمد زيادة، ألا ترى العرب في ضرورة الشعر تجوز قصر الممدود لأنه رجوع إلى الأصل، ولا تجوز مد المقصور لأنه خروج عن الأصل، والروح بيّنه تعالى وبيّن من شاء من عباده بالبشارة والنذارة، وللأولياء في هذه النبوة مشرب عظيم" [22].

في هذا النص، نلاحظ بأن مقام النبوة هو من المكتسبات، لأنه مرتبط بالدرجة الرفيعة، وبإمكان الولي أن يصل بفضل أعماله إلى الدرجة الرفيعة، فيكون مشاركا لمقام النبوة، وهو ما أكده بقوله "بأن للأولياء في هذه النبوة مشرب عظيم". فإذا كان الأمر كذلك فهل يجوز تسمية الولي بالنبي؟

إن الجواب عن ذلك هو النفي القاطع، استنادا إلى المرويات، حيث يقول: " قال صلى الله عليه وسلم: (إن الرسالة والنبوة قد انقطعت) وما انقطعت إلا من وجه خاص انقطع منها مسمى النبي والرسول ولذلك قال: (فلا رسول بعدي ولا نبي) ثم أبقى منها المبشرات وأبقى منها حكم المجتهدين وأزال عنهم الاسم" [23].

إن العلاقة وثيقة جدا بين الولي والنبي، إلى درجة أن النبوة مدرجة في الولاية، فكل نبي هو ولي، لكن تسميته بالنبي ترجع إلى الخبر باعتبارها نعتا إلهيا في من اختصه الله بالوحي عن طريق روح قدسي أمين ينزل بالرسالة على قلبه. فتكون النبوة هنا على قسمين: نبوة عامة وهي المشتركة بين الولي والنبي، ونبوة خاصة: وهي نبوة التشريع. وعليه يصبح تأويل الحديث (لا نبي بعدي) مقصوده نبوة التشريع لا النبوة العامة.

أما الرسالة البشرية، وهي التي اختص بها الله تعالى الأنبياء والرسل، فإنها "نعت كوني متوسط بين مُرسِل ومُرسَل إليه والمُرسَل به يعبر عنه بالرسالة... وتنقطع بانقطاع التبليغ بالفعل، ويزول حكمها بانقضاء التبليغ، قال تعالى:﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ ﴾ [المائدة: 99] واوجب عليه ذلك فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: 67] فالرسالة هنا هي التي أرسل بها وبلغها، وهكذا وردت في القرآن حيث ما وردت، ولا يقبلها الرسول إلا بواسطة روح قدسي أمين ينزل بالرسالة على قلبه وأحيانا يتمثل له الملك رجل...ولا تكون الرسالة إلا كما ذكرنا، ولا يكون هذا الوصف إلا للرسول البشري"[24].

والفرق بين النبي والرسول "أن النبي إذا القي إليه الروح كما ذكرناه اقتصر بذلك الحكم على نفسه خاصة ويحرم عليه أن يتبع غيره فهذا هو النبي، فإذا قيل له: ﴿ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾[المائدة: 67] إما لطائفة مخصوصة كسائر الأنبياء، وإما عامة للناس ولم يكن ذلك إلا لمحمد (ص) لم يكن لغيره قبله، فسمي بهذا الوجه رسولا والذي جاء به رسالة" [25].

ويمكن للرسول أن لا يكون نبيا، كما يمكنه أن يكون نبيا رسولا، وذلك كله مبني على وظيفة الحكم، يقول: "فكل رسول لم يخص بشيء من الحكم في حق نفسه فهو رسول لا نبيّ، وإن خصّ مع التبليغ فهو رسول ونبيّ، فما كل رسول نبيّ على ما قلناه، ولا كل نبي رسول بلا خلاف." [26]

والرسالة تختص أصلا بالحكم إضافة إلى الخبر "ولأنبياء الشرائع والرسل الخبر والحكم، ثم ينقسم الحكم إلى أمر ونهي، ثم ينقسم الأمر إلى قسمين: إلى مخيّر فيه وهو المباح، وإلى مرغب فيه، ثم ينقسم المرغب فيه إلى قسمين: إلى ما يذمّ تاركه شرعا وهو الواجب والفرض، وإلى ما يحمد بفعله وهو المندوب ولا يذمّ بتركه. والنهي ينقسم قسمين: نهي عن أمر يتعلق الذمّ بفاعله وهو المحظور، ونهي يتعلق الحمد بتركه ولا يذمّ بفعله وهو المكروه" [27].

أما الخبر "فينقسم قسمين: قسم يتعلق بما هو الحق عليه، وقسم يتعلق بما هو العالم عليه. والذي يتعلق بما هو الحق عليه ينقسم قسمين: قسم يعلم وقسم لا يعلم، فالذي لا يعلم ذاته، والذي يعلم ينقسم قسمين: قسم يطلب المماثلة وعدم المناسبة وهو صفات التنزيه والسلب مثل ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: 11] والقدوس وشبه ذلك، وقسم يطلب المماثلة وهو صفات الأفعال، وكل اسم الهيّ يطلب العالم، وهذه الأقسام كلها مجموع الرسالة وبه أتت الرسل." [28]

فالخبر والحكم ليس بعد هذا التوضيح إلا العقيدة والشريعة، وهما مضمون الرسالة، ومكوّنا الدين، ومن واجب الرسول تبليغهما لمقتضى ماهية الرسالة.

فإذا ما عدنا إلى الولي، فإننا نجده يتميز عن الرسول مثل ما تميز به عن نبي التشريع، فهو تابع للرسول فيما بلغ به من الشرائع، فليس له الحكم، بل فقط له الخبر عن طريق وحي يختلف في صورته وطريقته عن وحي الرسل، "كأن يكون وحيا أو إلهاما أو نفثا أو إلقاءً أو وجودا" [29] . وبذلك يصر ابن عربي على أن المنقطع من الوحي هو ما تعلق بالحكم الإلهي، فليس لولي مهما بلغ من الدرجة أن يكون له ذلك، وإلا كان محدثا لدين جديد. فالأولياء تابعون في الشرائع لرسالة الرسول.

غير أن الاشتراك في اسم الرسول هو بالإتباع، وهو المعبّر عنه بـ "الوراثة"، "الورثة وهم الأتباع الذين أمروا بالتبليغ كمعاذ وعلي ودحية رسل رسول الله﴿ ولا يزال كل متأخر مأمورا بالتبليغ ممن أمر بالتبليغ متصل الطريق مأمورا عن مأمور إلى رسول الله ^ يسمى رسولا" [30].

غير أن وراثة الرسول تختلف بين أهل الاجتهاد من علماء الرسوم، وبين أهل الكشف من رجال الله المعبّر عنهم بالأولياء.

فبالنسبة للمجتهدين فلهم الحكم من أقسام الرسالة، حيث أن الله تعالى قد آمر "من لا علم له بالحكم الإلهي أن يسأل أهل الذكر فيفتونه بما أدّاه إليه اجتهادهم، وإن اختلفوا كما اختلفت الشرائع ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة : 48] وكذلك لكل مجتهد جعل له شرعة من دليله ومنهاجا وهو عين دليله في إثبات الحكم، ويحُرم العدول عنه، وقرّر الشرع الإلهي ذلك كله" [31].

أما بالنسبة للأولياء المشاركون للنبوة في مقام الولاية، وبذلك سموا بـ "أنبياء الأولياء "فإن وراثتهم تكون في الحقيقة من الله، ذلك أن " الولي لا يأخذ النبوة من النبيّ إلا بعد أن يرثها الحق منهم ثم يلقيها إلى الوليّ ليكون ذلك أتم في حقه حتى ينتسب في ذلك إلى الله لا إلى غيره" [32]، وتصبح وراثة الولي لعلوم وأحوال النبي هي من المصدر أو المعدن الذي تلقى منه النبي، وليس ذاك إلا مصدر أو معدن الولاية نفسها التي يندرج تحتها النبي. ويوضح ابن عربي هذه الوراثة كالتالي: "وأما حالة أنبياء الأولياء في هذه الأمة فهو كل شخص أقامه الحق في تجل من تجلياته وأقام له مظهر محمد ومظهر جبريل عليه السلام، فاسمعه ذلك المظهر الروحاني خطاب الأحكام المشروعة لمظهر محمد (ص) حتى إذا فرغ من خطابه وفزع عن قلب هذا الوليّ عقل صاحب هذا المشهد جميع ما تضمنه ذلك الخطاب من الأحكام المشروعة الظاهرة في هذه الأمة المحمدية، فيأخذها هذا الوليّ كما أخذها المظهر المحمدي للحضور الذي حصل له في هذه الحضرة مما أمر به ذلك المظهر المحمدي من التبليغ لهذه الأمة فيرد إلى نفسه، وقد وعى ما خاطب الروح به مظهر محمد (ص) وعلم صحته علم يقين، فاخذ حكم هذا النبيّ وعمل به على بينة من ربه." [33]

نحن أمام مظهر من مظاهر الصراع على السلطة العلمية بين الفقهاء، أو علوم الرسوم عموما، وبين مشايخ المتصوفة(الأولياء)، فعلم أهل الظاهر من الفقهاء ومن شاكلهم، حتى وإن كانوا من الورثة للعلم النبوي، إلا أن وراثتهم لا تتعدى الاجتهاد في ما ليس فيه نص، أما غير ذلك فهو رسول لرسول الله مبلّغ عنه لا أكثر. أما ما ليس فيه نص فهو اجتهاد منه وحكمه آنذاك هو ما أداه إليه اجتهاده وأعطاه دليله، وليس حكم الله، إذ لو كان حكم الله لما كان فيه اختلاف، ولكنه رغم ذلك راجع إلى حكم الشريعة بحكم تقرير الشارع لذلك. فنحن في الحقيقة، وفق هذا التحليل أمام علم بشري متوقف على حكم النظر واستعمال العقل، وهو المعبّر عنه بالاستنباط عند الفقهاء. أما علم الأولياء فهو يقين، بل عين اليقين، وتبعا لذلك فإن المرجع في معرفة مسائل الدين وقضاياه هو للأولياء، فهم أحق بالإتباع من غيرهم، بل الواجب على الغير من علماء الدين الرجوع إليهم. " فهم، (يعني الأولياء) في هذه الأمة مثل الأنبياء في بني إسرائيل على مرتبة تعبّد هارون بشريعة موسى عليهما السلام مع كونه نبيا، فإن الله قد شهد بنبوّته وصرّح بها في القرآن، فمثل هؤلاء يحفظون الشريعة الصحيحة التي لا شك فيها على أنفسهم وعلى هذه الأمة ممن اتبعهم فهم أعلم الناس بالشرع" [34] . وفي هذا النص يسوق ابن عربي الدليل من القرآن الكريم على أنهم أولى بالإتباع وغيرهم تابع لهم، فهم بمثابة هارون من موسى المتعبّد بشريعته رغم انه نبي. كما وقد ورد في "الخبر عن النبي أن علماء هذه الآمة أنبياء بني إسرائيل" [35]، فأولياء هذه الأمة استنتاجا لما سبق هم أنبياء متعبدون بشرع الرسول محمد (ص) الذي ورثوه من ذات الحضرة التي أخذ منها الرسول مضمون الرسالة.

إن هذا التفوق الذي يؤكد عليه ابن عربي بخصوص منزلة الأولياء، ودورهم تجاه الحياة الدينية بصورة عامة، نجده على أرض الواقع منعكسا في النزاع والخصام بين أهل التصوف وعلماء الدين من فقهاء وغيرهم. فأولوية الطريق الصوفي هي عن قناعة تتعزّز باستمرار بأن الله يمدّ الصوفي بما هو عليه الحق في ذاته، كما أنه مقتنع مقابل ذلك أن علماء الرسوم المزاحمون له ليس موقفهم ذاك عن علم يقيني مشهود، وإنما عن اجتهاد قائم على النظر وطرق الأدلة، فاقد لليقين. وقد أشار ابن عربي إلى ذلك، حين أكّد على أن الأولياء هم أعلم الناس بالشرع. "غير أن الفقهاء لا يسلّمون لهم بذلك، وهؤلاء لا يلزمهم إقامة الدليل على صدقهم بل يجب عليهم الكتم لمقامهم، ولا يردون على علماء الرسوم فيما ثبت عندهم مع علمهم بأن ذلك خطا في نفس الأمر، فحكمهم حكم المجتهد" [36].

لكن هل يحق للولي أن يجتهد فيما ليس فيه نص؟ كما يفعل الفقهاء أمام المستجدات. إن المعين الذي يغرف منه الولي يؤهله لذلك، بل يصبح هو النموذج الأصلي لمقام نبوة التشريع، وبذلك تكون أفعاله وأقواله داخلة في الشرع المتعبّد به، كما أن " لهم بحكم شرع النبي (ص) أن يَسُنوا سُنة حسنة مما لا تُحِل حراما ولا تُحرم حلالا، ومما لها أصل في الأحكام المشروعة وتسنينه إياها ما أعطاه له مقامه، وإنما حكم به الشرع وقرّره بقوله: "من سنّ سُنّة حَسَنة " الحديث" [37] . بذلك تكتمل السلطة الكاملة للولي في أن يكون القيم على دين الله شريعة وعقيدة، وما يقرره من أحكام وسلوكيات تجاه المجتمع، شرط التزامه بالشريعة التي نزلت على محمد. وهذا الالتزام في الحقيقة ليس حرفيا، كما هو الحال في أدبيات رجال الدين من أهل الظاهر_ وبالخصوص في المدرسة السلفية الحنبلية عند شيخ الإسلام ابن تيمية وتلامذته _ بل هو التزام متوقف على الفهم لهذه الشريعة الذي يستند بدوره إلى الكشف القائم بدوره على المبشرات كما هو الحال في الرؤى، أو الإلهام، وغيره. ولما كان الولي يستمد هذا الفهم مما استمده النبي لاشتراكهما في الولاية، فان فهمه يصبح بمثابة حكم الشريعة الذي لا راد له، وبذلك فقد ضمن الولي عدم الاعتراض على ما يأتيه أو يقول به، وليس ذاك إلا وجه من أوجه العصمة التي تعلي من سلطة الولي مقابل كل سلطة أخرى في المجتمع الإسلامي.

خاتمة

يمكننا أن نستخلص مما سبق أن مقام الولاية التي حرص ابن عربي على جعلها القضية المركزية في خطابه، لم تكن في الحقيقة إلا قضية التصوف ذاته أمام المنكرين له من علماء أهل الظاهر (الفقهاء بالخصوص). إنها منافحة لتبرير شرعية

العلم اللدني الذي يأتي به الولي، وتبرير ما يُقرّه الأولياء من أحكام وسلوكيات في المجتمع. . فالأولياء ليسوا مجرد طلاب علم قد يصيبون أو يخطئون مثل غيرهم من علماء الظاهر، بل علمهم يقيني مستمد من حضرة الولاية التي يشتركون فيها والأنبياء، إلا أن الاختلاف بينهما هو في وظيفة التشريع، وحتى هذه الوظيفة تضمحل أمام تأويل وفهم أسرار الشريعة التي يختص بها الولي.

هذه المكانة التي يحتلها الأولياء في المجتمع الإسلامي تؤهلهم لأن يكونوا سلطة دينية مرجعية في فهم الدين وحقائقه، فهم متبوعون لا تابعون ذلك ما يعطيه مقام الولاية. وإذا علمنا بأن السلطة الزمنية في المجتمع الإسلامي إنما تدين بولائها إلى السلطة الدينية، تأكد لنا أن الصراع على السلطة الدينية إنما هو في حقيقته صراع على السلطة السياسية.

الهوامش

1- شودكيفتش ميشيل، الولاية. ترجمة الطيب أحمد. المجلس الأعلى للثقافة 2000، القاهرة. ص: 18

* هو ابو بكر محمد بن علي بن محمد بن احمد بن عبد الله الطائي الحاتمي محيي الدين يرقى نسبه الى عبد الله بن حاتم الطائي، وكان يعرف بابن العربي بالمغرب واصطلح أهل المشرق على ذكره بغير ألف ولام فرقا بينه وبين قاضي قضاة اشبيلية أبي بكر محمد بن العربي المعري المتوفى سنة 543هـ . ولد ابن عربي في ليلة الاثنين 17 رمضان سنة 560هـ الموافق لـ 28 يوليو 1165م في مرسية بشرق الأندلس ... حقق ابن عربي منذ مطلع شبابه شهرة كبيرة في الأندلس وشمالي إفريقيا حيث قضى شطرا كبيرا من حياته متنقلا في مقابلات متواصلة مع المتصوفة ومناظرات مع مختلف الجماعات والمذاهب والنحل، وقصده الكثير من التلامذة والشيوخ بقصد الاتصال به والاستفادة من علومه. بعد مغادرته الى المشرق زار العديد من عواصمه، والتقى الكثير من علمائه وأقطاب التصوف واستفاد منهم كما استفادوا منه. وانتهى به الترحال بعد حياة حافلة بالعطاء في دمشق، وتوفي بها ليلة الجمعة 28 من شهر ربيع الآخر سنة 638 هـ الموافق لـ 16 تشرين الثاني/نوفمبر 1240م عن عمر يناهز 78 عاما.

2- المرجع نفسه، ص: 35.36

3- الهجويري علي بن عثمان، كشف المحجوب. ترجمة اسعاد عبد الهادي قنديل. دار النهضة العربية، بيروت 1980. ص: 443

4- الحكيم سعاد، المعجم الصوفي. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت، لبنان. ط1، 1981. ص:1231، 1232

5- رواه البخاري في الرقائق، رقم 38، وابن ماجه في : الفتن، رقم 16

6- رواه الترمذي في سننه (كتاب الزهد) باب 53

7- رواه البخاري في الرقائق 38

8- ميشيل شودكيفيتش، المرجع السابق. ص: 39

* انظر محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي، ابتداء من ص 317. حيث وضح بصورة موسعة مفهوم الولاية الشيعية بمرجعياتها المؤسسة لها وأبعادها المختلفة، كما تعرض إلى الفرق بينها وبين الولاية الصوفية.

9- الحكيم سعاد: مرجع سابق. ص: 1233

• ابو عبد الله محمد بن علي بن الحسين الترمذي، الملقب بالحكيم الترمذي، توفي نحو 320ه

10- محمد حلمي عبد الوهاب: ولاة وأولياء ـ السلطة والمتصوفة في إسلام العصر الوسيط ـ الشبكة العربية للأبحاث والنشر. بيروت، لبنان / ط1، 2009 / ص: 82

11- ابو عبد الله محمد بن علي بن الحسين الحكيم الترمذي: ختم الأولياء، وضع حواشيه : الشيخ عبد الوارث محمد علي زدار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان. ط1، 1999 / ص : 5

12- ميشيل شودكيفيتش، المرجع السابق. ص: 49

13- مقدمة كتاب ختم الأولياء. مصدر سابق. ص :3 و 4

14- ميشيل شودكيفيتش، المرجع السابق. ص: 45

• انظر ذلك في ابن عربي، الفتوحات المكية. ضبطه وصححه ووضع فهارسه: احمد شمس الدين. دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان. ط1، 1999. الباب الثالث والسبعون .

15- ميشيل شودكيفيتش، الولاية. ص: 79

16- ابن عربي: الفتوحات المكية. الباب الثاني والخمسون ومائة- مج3 ص: 371

17- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

18- المصدر نفسه، ص: 372

19- انظر في ذلك نصر حامد ابو زيد : هكذا تكلم ابن عربي. مرجع سابق. حيث حلل هذه القضية باستفاضة. ص: 77 وما يليها.

20- ابن عربي، المصدر السابق، ص : 372

21- المصدر نفسه، ص : 387

22- المصدر نفسه، ص: 382

23- المصدر نفسه، الصفحة 380.

24- المصدر نفسه، ص:388

25- المصدر نفسه، ص: 389

26- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

27- المصدر نفسه، ص: 387

28-- المصدر نفسه، ص: 388

29- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

30- المصدر نفسه، ص: 389

31- المصدر نفسه، ص:381

32- المصدر نفسه، ص: 382

33- المصدر نفسه، مج1، الباب الرابع عشر، ص: 229، 230

34- المصدر نفسه، ص: 230

35- المصدر نفسه، ص : 231

36- المصدر نفسه، ص: 230

37- المصدر نفسه، مج 3، ص: 383